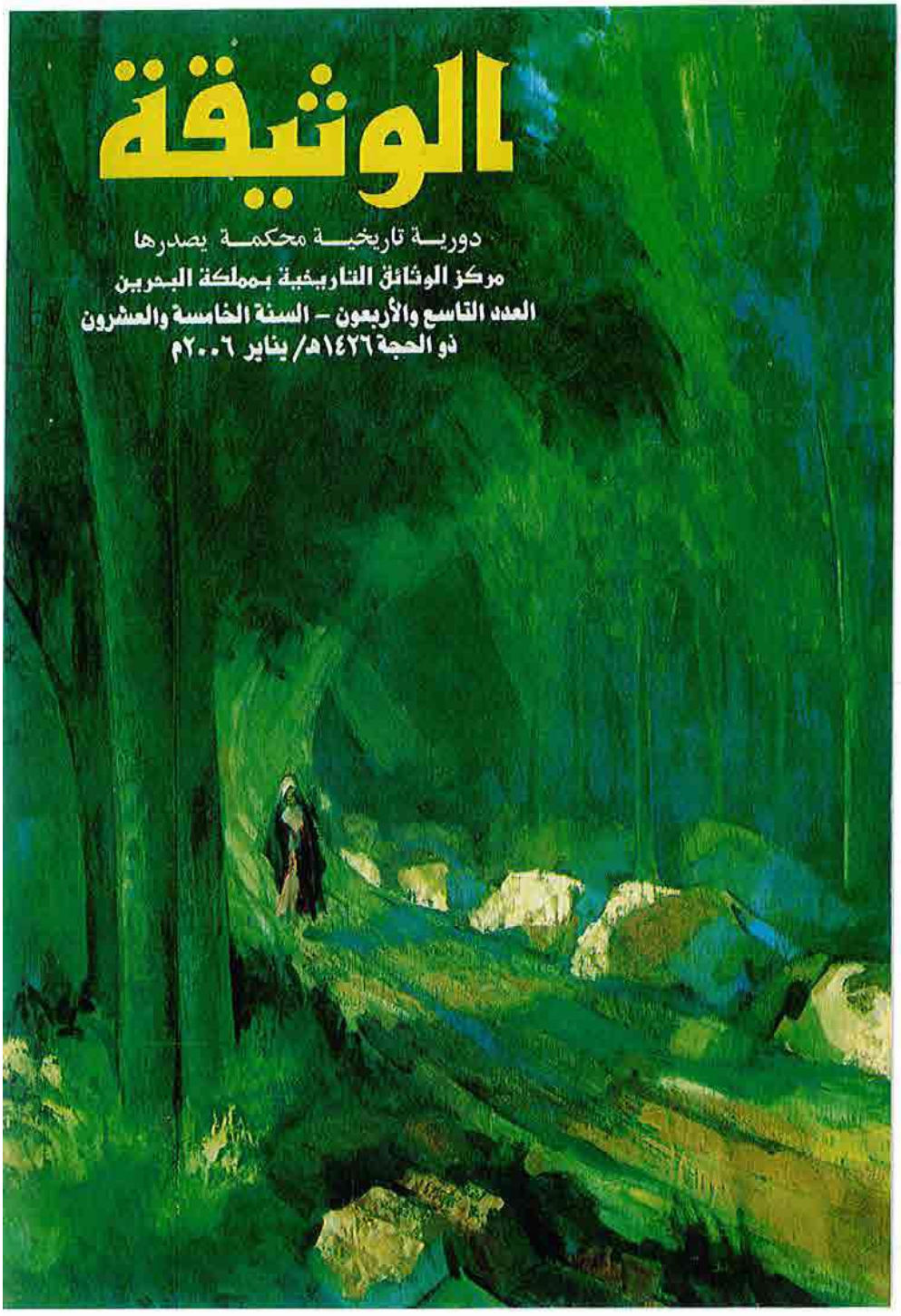
الوثيقة
دورية تاريخية محكمة يصدرها
مركز الوثائق التاريخية بمملكة البحرين
العدد التاسع والأربعون - السنة الخامسة والعشرون
ذو الحجة ١٤٢٦هـ/ يناير ٢٠٠٦م

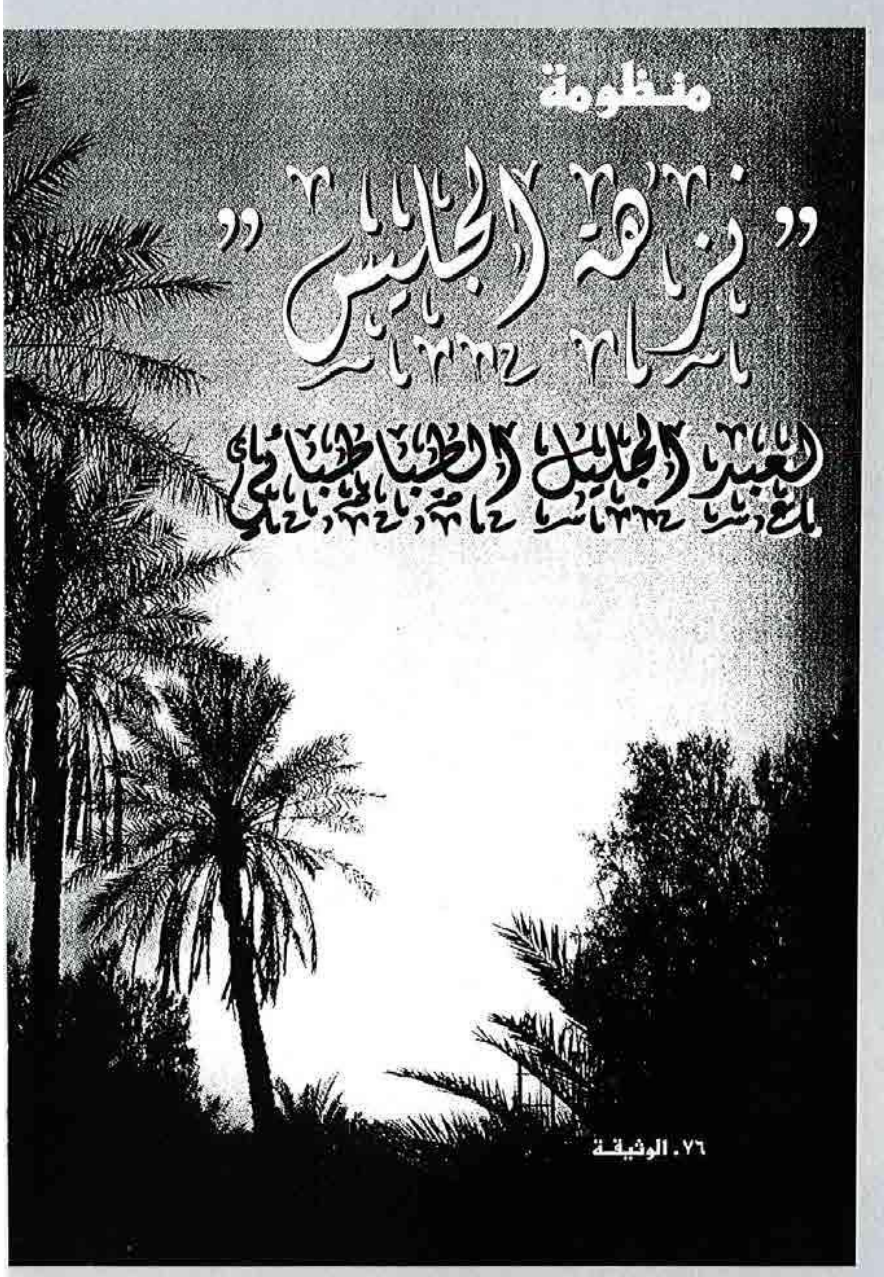
منظومة
"نزهة الجليس"
العبد الجليل الطباطبائي
٧٦. الوثيقة

قراءة وثائقية فنية

بقلم : الدكتور عبد الجليل منصور العريض

يشكّل أدب الرحلة عنصراً بارزاً، وآلية فاعلة في أساسيات المنظومة المعرفية في ثقافتنا العربية الإسلامية، لها خصائصها وسماتها وقيمتها .

وعاش عبد الجليل الطباطبائي[1] تجربة الرحلة والاستمتاع بمعالم الطبيعة والسياحة في أحضانها الساحرة الجميلة، حين قام مع جماعة من رفاقه بنزهة بحرية في مياه الخليج العربي طافوا خلالها حول العديد من جزر البحرين. وقام الطباطبائي بنظم معالم الرحلة وأدّى دوراً مزدوجاً من خلال انتقاله في الزمان والمكان . فقد رصد فضاء الرحلة، وسجّل عوالمها المشاهدة، وأشياءها المسموعة، كما تكفل بدور الراوي فنقل الصورة من خلال رؤيته وبلغته الخاصة . وامتدت تلك الرحلة ما يقارب الأسبوعين، نَعِمَ أثناءها بأوقات سعيدة، ولحظات من المرح والبهجة تركت في نفسه أطيب المشاعر وأسعد الذكريات .

ومن ثم عمد إلى تسجيل معالم الرحلة وجزئياتها، في أرجوزة تتكون من واحد وثمانين ومائة بيت، وسمّاها " نزهة الجليس في وصف الديار"[٢]، ونزع فيها منزعاً توثيقياً رصد فيه كل ما رآه من مشاهد طبيعية وظواهر بيئية، كما نقل انطباعاته عمّن قابل من أشخاص . مما أعطى المنظومة طابع الشعر الجغرافي التسجيلي، المصوغ في قالب سردي، وبأسلوب لم يخلْ من الوجدان الصادق، وجنح في الكثير من الأحيان إلى التعبير الفني والأساليب الشعرية وتعبيراتها الأدبية مبتعداً قدر الإمكان عن جفاف النظم .

والأرجوزة بمعطياتها المذكورة يمكن تصنيفها ضمن الأدب الجغرافي أو أدب الرحلات وتسميتها بالنزهة تجوّزاً . وهي من باب إطلاق الجزء على الكل. لأن مفهومي النزهة والرحلة فيها يتداخلان . والنزهة في اللغة تعني التنزّه والخروج عن الموطن الذي يعيش فيه الإنسان ويتباعد عنه . كما تعتمد النزهة المكان البعيد، فكل مكان بعيد يعتبر نزهة[٣] . وأما الرحلة فتعني الارتحال، كما يراد بها في اللغة الكتاب الذي يصف فيه المرتحل ما يعرض له من مشاهد وأحداث، وما يراه من مناظر، مثل وصف الطبيعة الجغرافية، وعادات الناس وتقاليدهم، وأنماط حياتهم وتفكيرهم، وتاريخهم . مما يجعلها مرجعاً ثقافياً وتاريخياً مهماً[٤] . والمنظومة موضوع الدراسة تعدّ بالمعنى العلمي رحلة، وإن كان صاحبها قد أطلق عليها اسم النزهة .

وكانت اللغة التي كتبت بها تلك المؤلفات هي لغة النثر . لذا تكتسب منظومة **"نزهة الجليس"** ميزة وخصوصية، فهي من أدب الرحلات المنظوم شعراً. وتتمثل طرافتها وتفردها في اعتبارها إضافة مميزة على عدة مستويات : فقد صيغت نظماً وبدا فيها الكثير من مظاهر الشعرية، كما أنها تنتمي إلى مرحلة الهبوط الأدبي . فالرحلة تمت في الربع الأول من القرن التاسع عشر الميلادي، فشكّلت موضوعاً جادّاً في جو غلب على مضامينه الابتعاد عن المصداقية . واكتسبت قيمة وثائقية برصدها الكثير من معالم البيئة الجغرافية لجزر البحرين، وأرّخت للحياة الطبيعية والفطرية فيها من نباتية وحيوانية، وبدرجة أقل للمعالم الأثرية والتاريخية . وقد تغيّر الكثير من معطيات ذلك الواقع البيئي بسبب الزحف العمراني والحضاري بعد تدفق البترول منذ العام ١٩٣٢م

وما أحدثه من تغييرات جذرية . فغدت تلك المنظومة سجلاً صادقاً للحياة الفطرية، ووثيقة أدبية تشهد لما كان لهذه الجزر من تاريخ طبيعي عريق وبيئة نباتية وحيوانية مزدهرة .

وصاغ الطباطبائي منظومته على بحر الرجز، وهو بحر نظمت على إيقاعه العديد من المنظومات والأراجيز العلمية والتاريخية العربية. وصبّها في قالب سردي حكى فيه مراحل تلك الرحلة وجزئياتها من بدايتها حتى نهايتها . واعتمد على آليتي السرد الروائي والوصف ليصب فيهما تعابيره، فأتت مفعمة بالوصف للمناطق التي زارها، وللشخصيات التي تعامل معها .

وبدأ الناظم بمقدمة عرّف فيها بنفسه تعريفاً سريعاً، وافتتحها بحمد الله والصلاة على الرسول ﷺ . ثم ألمح إلى الباعث على الرحلة وهو الترفيه والاستمتاع بجمال الطبيعة في جو من النزهة البهيجة مع الأصدقاء حيث يتبادلون الأحاديث الشائقة التي تطيب بها النفس، مما يجعل ذلك اللقاء الممتع من أعظم متع الحياة :

وبعـده فخيرُ لـذّاتِ الدُّنـا ... طيبُ اجتمـاعٍ بالكـرامِ الفُطَنَا

لا سيّما في أرضِ منتزهٍ رَضيْ ... يفصحُ كلٌّ فيه ما قـد يقتضي

والغرض العلمي إن لم يكن وارداً، لكنه تحقّق بشكل كبير .

ويشير إلى طبيعة الموضوعات التي تناولوها فيذكر أنها تتراوح بين موضوعات جادة وأخرى هازلة، ولحلاوتها وفائدتها لا ترتوي منها النفس :

من كلِّ معنىً في الحديثِ مُبْتكَرْ ... كأنهُ زَهـرُ الريـاضِ في البكَرْ

نجني ثمارَ الـجدِّ في فنـونِ ... طـوراً وطـوراً مِلَـحَ الـمجونِ

فَذاكَ للأريبِ أهنَـى مكتسـبْ ... لا يرتوي منه الظريفُ ذو الأدبْ

ويوسّع علماء النفس دائرة حوافز الرحلة فيرى "يونج" أنها تعبّر عن رغبة عميقة في التغيير الداخلي .. تنشأ مع الحاجة إلى تجارب جديدة أكثر من تعبيرها في الواقع عن

تغيير مكاني[٥] وقد تعبّر عن عدم الرضا بالواقع فيندفع الفرد نحو آفاق جديدة . هذا فضلاً عن أن حياة الاستقرار والرسوخ هي لون من التقوقع والجمود .

وعلى أية حال لم يكن الكشف والمغامرة هو دافع الطباطبائي من الرحلة وإن حققت بعض ذلك، بل كان متعة السفر ولذة التغيير والعيش في أحضان الطبيعة . فضلاً عن أنها وفّرت له التحرر من قيود الحياة وأعبائها، والتخفف من الضغوط النفسية، وكسر رتابة الحياة وجمودها، وتجديد لمفهومها . لقد مثلت بالنسبة للطباطبائي ضرباً من الشوق العاطفي أدّى إلى خلق هذا العمل الفني بـما فيه من ميل إلى العلمية والموضوعية .

تاريخ الرحلة : وحدّده معوّلاً على التاريخ الهجري فقال:

وكـــان مـــما يَسَّرَ الربُّ الحـفي أنّـــا خـرجنا نقصـــدُ النزهـةَ في
صُبحِ الخميسِ النصفِ من شهرِ رجبْ في خامسِ الحوتِ وذا فصلُ يُحبْ
من ســنةٍ فــي ضبْطــها أرّخْنَـــا "عَنّـــيَ للنـزهـــةِ قُـلْ خَرجنـا"

والشطر الأخير يتضمن تاريخ الرحلة، وهو بحساب الجُمَّل وكان هذا اللون من التاريخ شائعاً في عصر الناظم ويوافق ١٢٤١هجرية/١٨٢٥ميلادية . وتمت الرحلة في منتصف شهر رجب أي في حدود الرابع والعشرين من فبراير، واستمرت أسبوعين أي حتى سلخ رجب وهو ما يوافق العاشر من مارس تقريباً وأشارت إلى هذا التاريخ مقدمة المنظومة في الطبعة المصرية[٦] . وهذا يعني أنها تمت في بداية فصل الربيع، وعلل ذلك باعتدال الجو ومناسبته للنزهة "وذا فصل يُحبُّ" .

رفاق الرحلة : يعرّف رفيق الرحلة بأنه الشخص الذي ينتقل في الوقت نفسه والمكان نفسه والرحلة نفسها التي ينتقل فيها الرحّالة البطل[٧]، وهو الناظم هنا. وأشار الطباطبائي إلى رفقاء النزهة، ومدح بلاغتهم وفصاحة لسانهم، وأثنى على عراقة نسبهم وحسن سجاياهم وخصوصاً صفة التآلف والإيثار . مـــما جعل الرحلة ممتعة صحبة ومكانا :

في رفقـةٍ غُـرٌ الوجـوهِ كُمَّـلِ ما منهُـمُ إلا فصيـحُ المقـولِ
قومٌ كـرامٌ من كـرامٍ تُنْمَـى ممَّنْ زَكـى خـالاً وطابَ عَمَّـاً
قد ملـكوا محاسـنَ الأخـلاقِ مـن كـلِّ قِـرْمٍ للعُـلاَ سَبَّاقِ
باعوا الخلافَ واشـتروا وِفاقا فالكلُّ في حـسنِ الطباعِ فاقَا
من طبعِهم إيـثارُ مـا تشـاءُ لـهم بـذلكَ اليـدُ البيضـاءُ

وأشار إلى صنف آخر من الرفقاء وهم الغلمان الذين يقومون بخدمتهم وأشاد بلطف طباعهم ولين عريكتهم :

غلمانُنا كلُّ خفيفِ الـروحِ لا ينفكُّ في بشـرٍ وطبعٍ سَهْـلا
لا يعبسونَ في صعوباتِ الخَدمْ يخشون أن يُقـالَ فيهمْ ما يُـذمْ

وأغفل الطباطبائي ذكر أسماء أولئك الرفاق، عدا شخصية واحدة ربما لأهميتها وهو الشيخ "عبد الله بن أحمد الخليفة" فقد ذكره بالاسم، وهو أمير من الأسرة الحاكمة في البحرين، ولعله هو الذي موّل المشروع، وأثنى على أخلاقه خاصة الشجاعة والثبات في الوغى والكرم وحسن الضيافة، كما أشاد بأصوله وكرم جذوره :

نجلُ الهمامِ الباسـلِ المغـوارِ إذا عـلتْ غَيَـاهبُ الغبـارِ
يخضبُ مَتْنَ الصارمِ البتَّـارِ من هامةِ القِـرمِ الجريِّ الواري
عنيتُ عبدَ اللهِ نـجلَ أحـمدِ سامي الذُّرَى ربَّ العُلا والسؤددِ
أمُّ الوفـودُ نَحـوَه أفـواجا لرفـدِهِ قد قطعـوا الفِجاجـا
من مَعشرٍ شُـمٍّ تعاقـدوا على حُسنِ السجايـا واكتسابٍ للعُلا
آلِ خليفـةٍ عظـامِ المفخـرِ من كلِّ قِـرمٍ ماجـدٍ غضنفرِ

وهناك شخصيات عني بذكر أسمائها وهم الأفراد الذين كانوا يقابلونهم في محطات الرحلة وفي القرى التي يزورونها، وكثيراً ما كان يحرص على ذكر صفاتهم سواء الحسنة أو السيئة .

مقتنيات الرحلة : وقف معها وقفة متأنية، وذكر أنها لونان : سلاح الصيد، والكتب :

سلاحُنا الأسيافُ والبنـــادقُ وبالـرمايـةِ الجميـــعُ حـاذقُ

وقد صحبنا معنا أسفـــــارا نقطفُ من أسطـــارها أزهارا

وأشار إلى تنوّع موضوعات تلك الكتب فبعضها يشتمل على الطرائف والنوادر، وبعضها الآخر في موضوعات الشعر والقصص، أو في الفقه والحديث .

* * * * * * *

وسيلة السفر : ذكر أنهم امتطوا قاربين تميّزا بدقة الصنع وإحكامه، وبالسرعة الفائقة والرفاهية، كما أشار إلى توسّط حجمهما وعلل ذلك بسرعة الحركة :

قد امتطينا قاربيـــن حُـفّـا بحسـن تَـيسير الإلـهِ لـطفـا

قد أُحكمـــا صناعـةً وعِـدّهْ أسرعُ مـن طرفٍ تطيلُ مَـدّه

أرفَهُ مركوبٍ وفي خيرِ مقـــرْ يضمُّنا ضَـمُّ الصناديقِ الِـبـدَرْ

بل إنّما هما لطـيفـــاً جُرْمِ ليجريا في البحـرِ إذْ لم يَطْـمِ

* * * * * * *

حركة الانتقال : لقد اتخذت الرحلة فعلاً دائرياً فقد انتهت من حيث ابتدأت، وقام الخطاب فيها على الترتيب والشكل . وبين زمني الابتداء والانتهاء تحقق الانتقال من مكان إلى آخر . وظل فعل الرحلة يقوم على التحديد الزمني كلما تمّ الانتقال في المكان، ومن ثم ملأت المؤشرات الزمانية والمكانية المسافة الفاصلة بين زمني الخروج والرجوع. وعملت هذه المؤشرات على تجزئة الخطاب إلى وحدات مختلفة، وضمنت ترتيب الفعل والخطاب وتسلسلهما[٨] . وقد تمت حركة انتقال الطباطبائي في فضاء جزر البحرين ومياهها، بيسر وسلام وعلى امتداد الرحلة، ولم تحدث أية معوقات بسبب انتظام حركة الرياح وهدوئها :

لَمّا ركبْنا كـانت الريحُ لهـا تحـرُّكٌ مطـــابقٌ للمُشْـتَهَـى

ويذكر مختصو البيئة أن منطقة الخليج العربي تتميز في عمومها باعتدال تياراتها المائية، وتكون سرعة تلك التيارات واتجاهاتها خلال فصلي الشتاء والخريف قليلة، وتتراوح بين سنتمترين إلى ثمانية في الثانية . أما في فصل الصيف فتصل إلى ١٩سم في الثانية، وغالباً ما يكون اتجاه الرياح في منطقة الخليج شمالية أو شمالية غربية، وتصل سرعتها في فصل الشتاء أي من نوفمبر إلى مارس إلى أكثر من عشرة أمتار في الثانية[٩] هذا في عموم مياه الخليج العربي، ولا يختلف الوضع المائي والجوي في فضاء البحرين عن ذلك . وفي الجزء الشرقي من البحرين وهو المكان الذي انطلقت منه الرحلة يسير التيار موازياً للساحل من ناحية الجنوب، وتعمل المواقع والتضاريس التي تحت الماء على تخفيف اندفاع سريان التيارات البحرية الناتجة عن المدّ والحرارة[١٠] كما أن درجات الحرارة في الفترة التي تمت فيها الرحلة تكون عادة محببة، وتتراوح بين شهري فبراير ومارس بين ١٨,٢ درجة و٢٠,٣ درجة[١١] .

* * * * * * *

المكـــان : ونقصد به الفضاء الذي اجتازه المتنزهون، والأماكن التي توقفوا عندها، فهو يمثل خط سير الرحلة . ولا يبدو أنهم وضعوا مخططاً لتحركاتهم، ولكنهم قطعوا خطاً دائرياً وكانوا يتوقفون عند المحطات التي تنال إعجابهم، ويغادرون سريعاً الأمكنة التي لا يجدون فيها راحة أو جمالاً طبيعياً .

وتمثل تلك المحطات التي مرَّ بها الطباطبائي وتناولها بالوصف العمود الفقري للمنظومة، وتجسُد التفاعل الحيّ بينه وبين الطبيعة، كما تتضمّن القيمة الوثائقية التي سنركز عليها .

وتتجلى القيمة الوثائقية من خلال الوصف الذي عوّل عليه الناظم كآلية في النظم واعتمده كأداة فنية سجّل من خلالها ما رآه، فكان الوصف عنصراً رئيساً في نسيج المنظومة . وكان الناظم يلاحظ الأمكنة التي مرّ بها، واعتمد على حواسه في رصد مشاهدها . فذكر الصفات المرئية، وأشرك حاستي السمع والشم . لكن يبقى لحاسة البصر الدور الأكبر في تسجيل مرئياته، وكان يقف بحدقته أمام مناظر الطبيعة ويراقبها

ويتقراها ببصره، ومن ثم بنى موضوعه على الوصف وتقرير ما كان يشاهده من أشكالها وأوصافها تقريراً عاماً، فأتت الصفات واقعية تقريرية تنقـل ما يراه وتسجله بأمانة وصدق . لذا غلبت على نظرته رؤية العالِم الذي يحدّق ببصره دون قلبه، مما جعل مشاهده أسيرة الإطار الخارجي المادي بشكل عام .

وإذا كان الوصف بحكم طبيعته الحركية ذات العمق زمنياً دفعنا إلى معاينة المكان ومواصلة الانتقال عبر الأمكنة التي يقف عندها الرحّالة واصفاً وبذلك تتشكل لدينا صورة مجسدة عن المكان، فإن السرد وهو الآلية التي استعملها الناظم والمقابلة للوصف والمكملة له تجعلنا أمام الأحداث التي كانت تجري من قبل، وتدفعنا إلى ملاحقة الحدث وجريانه في الزمان بوساطة التخييل .

ويبدو أن النزهة انطلقت من جزيرة "المحرق" وقد كانت مدينة "المحرق" عاصمة البلاد آنذاك، ومركز الحكم، ومكان سكن الناظم. كما يبدو أن الركب أبحر في الصباح الباكر متجهاً من الشرق إلى الغرب . وسنقوم في تتبع حركة الانتقال برصد المحطات التي مروا بها وبنفس الترتيب الذي ذكره الناظم[١٢]

* * * * * * * *

المحطة الأولى : جزيرة "سترة" : وهي رابع جزر البحرين من حيث المساحة، بعد جزيرتي "المنامة" و "المحرّق"، وأم النعسان، وأخذ الطباطبائي في رسم ملامح المكان والزمان بواسطة آليتي السرد والوصف :

سرنا على اسمِ اللهِ في مجراهما ... كذاكَ باسمه لـدى مرسـاهما

حتى قَدِمْنـا باعتجـالٍ سـتره ... واللهُ مُسْبِلٌ علينـا سـتره

تَـرَى بـها النخيلَ باسقـاتٍ ... من كلِّ نـوعٍ لـذٍّ للجنات

فيها ينابيعُ المياهِ قد جـرتْ ... في برِّها وبحرهـا تَفَجَّـرَتْ

فمذْ نزلناها ضُحَى النِهـارِ ... في دارِ بخْاخٍ بـلا استـقـرار

أقبلَ دعبلٌ بـما نحتاجُ لَـهْ ... من حَطَبِ النخلِ وذاك ناقلَـهْ

زمن الوصول الغبش وظلمة آخر الليل، وزمن النزول هو الضحى . وعني الناظم بذكر أهم ميزتين لجزيرة "سترة" : كثرة النخيل والمياه المتدفقة، ويقال إن السبب في تسميتها "سترة" هو انتشار غابات النخيل وإحاطتها من كل جانب حتى تكاد تخفيها عن الأنظار، وربما دلّت الصيغة الأدبية، الكناية، "الله مسبل علينا ستره"، على غنى الجزيرة بالخضرة والأشجار حتى تكاد تسترهم، أو ربما دلّت على الظلام حيث إن وصولهم كان قبل بزوغ الخيوط الأولى للنهار . ويذكر أن أشجار النخيل، وحتى نهاية الستينيّاتِ من القرن الماضي، كانت تغطي ثلاثة أرباع مساحة الجزيرة[١٣] تقريباً، ووصف الناظم نخيلها بالارتفاع والجودة وحلاوة الطعم، وتدل عبارة "من كلّ نوع" على توافر جميع أصناف الرطب في تلك الجزيرة الجميلة . ومن صنوف التمر الذي اشتهرت به هي وغيرها من جزر البحرين : "الخُلاص"، "الغُرّة"، "المرزبان"، "الخنيزي"، "الحلاو" وغيرها .

ويتوافر في "البحرين" أكثر من مائة صنف تختلف في حجمها ولونها ومواعيد نضجها[١٤]، هذا فضلاً عن غنى هذه الجزيرة بالأشجار المثمرة الأخرى خاصة الفاكهة والخضراوات، ومن محاصيلها : الرمان والتين واللوز المحلي والبطيخ[١٥]، مما جعلها جنة خضراء، وأضفى عليها سحراً وجمالاً وقيمة اقتصادية . ويشير البيت الثالث إلى ظاهرة طبيعية مهمة تتمتع بها جزيرة "سترة" وبقية جزر البحرين كذلك، وهي انتشار عيون المياه الطبيعية والمتدفقة؛ وهناك ضربان من تلك العيون يشير إليهما الناظم وهما : العيون البرية ؛ ومن أشهرها في سترة : عين "مهزّة"، وعين "الرَّحَى"، وعين "عبدان"، وعين "بويز"، وعين "حميمة" وغيرها . والضرب الثاني وهو العيون البحرية، ويطلق عليها اسم "الكواكب" وهي ظاهرة تتفرّد بها منطقة البحرين، إذ يتفجر الماء العذب بغزارة وسط مياه البحر المالحة ؛ ومن أشهر كواكب سترة: كوكب "البنات"، وعين "أبوسنان"، وعين "الظهر"[١٦] . وقد أعطى وجود هذه العيون البحرية تميزاً لا لجزيرة "سترة" وحسب، بل لمنطقة البحرين، وأكسبها تفرداً وقداسة كما تشير إلى ذلك ملحمة "جلجامش"[١٧] .

توجّه الركب المبحر بعد ذلك إلى جزيرة مجاورة لـ "سترة" وهي جزيرة "النبيه صالح"، ولم يعرض لذكرها ربما لاشتراك الجزيرتين في المزايا نفسها، واكتفى باعتبار

زيارتهم لها مغنماً أصابوه "ومذ غنما نزهة الجزيرة ..". والغنم هو الفوز بالشيء من غير مشقة . وفي التعبير دلالة على ما حققوه من متعة، نظراً لما تتمتع به "جزيرة النبيه صالح" من سحر وجمال، واستخدام الطباطبائي الاسم المختصر والدارج لها "الجزيرة" .

.....

المحطة الثانية : قرية "جَوْ" وبتغيّر المكان يتغيّر مضمون الخطاب الذي ساد في الفقرة السابقة . وينتقل الناظم من الأسلوب الوصفي للطبيعة إلى الحديث عن الجانب السياسي والاجتماعي، وعن الديار الخالية، والسكان الراحلين، وأسباب الرحيل، مع المقارنة بين الوضعين ومدح أولئك المغادرين معوّلاً على آليتي السرد والوصف :

ومُذْ غنمنا نزهـــــةَ الجزيـره ... سِرنا إلى جـــوٍّ بحسن سـيره

المنزلُ الذي عَفَتْ رسُومُـــــهُ ... مُذْ أفلتتْ من أفقـــهِ نُجومُـــهُ

من بعدِ ما كانَ محطَّ الرَّحْـــلِ ... يَلْقَى بها الطارقُ خـــيرَ أهـلِ

ومعقلَ الوُفُـــودِ والضيـــوفِ ... ومأمنَ الطريـــدِ والمخـــوفِ

يزينُـهُ غُـرٌّ به سُكَّـــــانُ ... هم الحُماةُ الصيدُ والشجعـــانُ

من كل فاضـــلٍ نقيِّ العِرْضِ ... أشمَّ غطريـفٍ جـــوادٍ مُرْضي

لقد استخدم الناظم مؤشراً زمانياً مكانياً للدلالـــة على حالة الانتقال "ومـــذ غنمنا .."، وعرضت الأبيات وصفاً للمنازل الخاوية، مشوباً برنّة من الحزن والأسى، كما ضمنها إشارة إلى الشيخ أحمد بن رزق، الشخصية المرموقة آنذاك، والمتوفى في ١٢٢٤هـ/ ١٨٠٩م، ويقال إنه أشهر من نزل قرية "جوّ" فبناها، وأنشأ بها مساجد وبركاً عظيمة لخزن "المياه" غاية في القوة والإحكام، كما شيّد بها قصوراً شامخة ثم نزح عنها إلى "الزبارة" في "قطر" . وبقيت هذه البلدة مهجورة تصفر في أنحائها الرياح، حتى نقل إليها الشيخ سلمان بن أحمد الفاتح، ثاني حكّام البحرين من آل خليفة أسرته عندما شعر بالتهديد الموجّه للزبارة موطنه الأول، وأسكنهم في قرية "جوّ"[١٨]، وبعدها نقلهم إلى

مدينة "الرفاع" حينما بناها . وتمثّل الطباطبائي كل هذه الأحداث وهو ينظم أبياته، كما ضمّنها ثناء أشاد فيه بأخلاق أهلها، وما تحلّوا به من كرم وعفة ونقاء سريرة وشجاعة وإباء، ووقف موقفاً مغايراً من صنف آخر من أهل هذه القرية ووسمهم بالخيانة وذمّهم وعلّل ما أصابهم من تمزّق بغدرهم وقلة وفائهم، وما نجم عن ذلك من رحيل زعمائهم وأخيارهم:

قَضَى عليها الدهـــرُ بالـــخرابِ حتّى غَدَتْ مســـاكنَ الضُبابِ
وذاكَ أمـــرُ اللهِ حيثُ أحكمـــه بدا بأهـلها اختـلافُ الكلمـــه
وبعضُ أهليهـــا نَحَى الخيـــانه بغياً بلا جُـرمٍ ولا امتـهـــانهْ

وعرض لصنف ثالث من أهالي قرية "جوّ" انتحوا ناحية وواصلوا عيشهم وهم صيّادو السمك، ونوّه الطباطبائي بمهارتهم في الصيد ومعرفتهم الدقيقة بالأسماك ومميزات كل صنف ومواسم صيده :

فعادتِ الـدارُ طلـولاً خاويـــه فلا يجيبُ الربـعُ منها داعيـــه
سوى فريقٍ حلَّ منهـــا ناحيـــه وكلُّهم في الصَّيد هـــادٍ داهيـــه
مميّـــزُ الأجنـــاسِ والأنـــواعِ في ســـردِ أسـماها طويلُ الباعِ
لا يجهلُ الحيتانَ فـرداً فـرداً يعرفُ بـــدءَ صيدهـــا والحدَّا

وامتدح الناظم أخلاقهم فقد قدّموا لضيوفهم وهم رفاق الرحلة أطيب ألوان السمك وأجوده . واقتصر الناظم على ذكر نوع واحد من السمك وهو "الجرجـور" أي سمك القرش[١٩] الذي يفترس حيوانات البحر ويقطعها بأسنانه كما يقطع السيف :

فبادرونا منه بالغضِّ الطـــري من خـــيرِ موجـودٍ بزعم المُخْبرِ
وكلّ "جرجورٍ" طويلِ السَّيفِ فأكثـــروا منـــه بغـــيرِ حَيـــفِ

وهكذا ألمح الناظم إلى غنى قرية "جوّ" بأصناف السمك، إلا إنه أضرب عن ذكر أنواعه عدا "الجرجور" ومما زاد في استمتاع المتنزهين في تلك القرية تدفق المياه وكثرة العيون فمكثوا فيها ثلاثة أيام على الرغم من كثرة أطلالها وما توحيه من وحشة . ولا يفوتنا أن نشير إلى النفس الأدبي الذي بعثته تلك الأطلال في نفس الناظم حيث ذكرته بمواقف أسلافه من شعراء العربية حينما كانوا يمرون بديار أحبتهم . فوقف على الأطلال وتغزّل وتأسّى لوحشتها :

دارٌ لربـــاتِ الحجـــال الخُـــرُّدِ ... من كلّ هيفـــاءِ بقـــدٍّ أمْيَـــدِ
ذاتِ اللمَى المعسولِ والثغرِ الشَّنَبْ ... وعقـــربِ الصدغِ لمضناها تدَبْ
ترســـلُ من شعـــورِها أفاعيـــا ... تنهشُ قَلْبَ الصبِّ وهي ما هيا
فأصبحـــتْ أطلالُـهـــا تُسائِـــلُ ... أينَ الدُّمَى وهاتِـكِ الـخلاخِلُ ؟

ومع ما في الأبيات من فتور عاطفي لم تَخْلُ من نفحات فنية تمثلت في تشبيه ضفائر النساء بالحيّات التي تنفث بسمومها في قلب المحب، كما برز الحس الأدبي في تساؤل الديار عن أهلها بحسرة عن أولئك اللواتي كنّى عن جمالهن بالدمى .

****

المحطة الثالثة : "حدّ الجمل" وتقع جنوب "جوّ" ووصلوها زماناً في الضحى :

حتى تجاوزنا ضحًى حَدَّ الجَمَلْ ... هنـاك أرسينـا بمنزل يُمَـــلَ
في قفـــرةٍ ليسَ بـهـــا أنيسُ ... ولا يعـــافيـرُ[٢٠] وليس عـــيسُ

استخدم الناظم مؤشرات زمانية مكانية "حتّى ... هناك" لربط ترتيب التنقلات المكانية وتسلسل الرحلة . وقد تركت وحشة المكان أثرها النفسي وتسببت في تسرب الملل إلى نفوسهم . فقد كان مجدباً لا حياة فيه ولا أثر لنبات أو حيوان . مما اضطرهم إلى الإسراع في مغادرته، والبحث عن مكان أكثر بهجة وجمالاً، ومن ثم غيّروا اتجاههم وداروا نحو الساحل الغربي قاصدين محطة جديدة .

المحطة الرابعة : وهي "رأس عيّاش" :

حتى نزلنـــا الراسَ للعَيـــاشِ من غـير إزعـــاجٍ ولا انكمـاشِ
بتْنا بأرضٍ خيرُ ما فيها الحطبْ لكنْ من الشمسِ أتى بعضُ التعبْ
ما شائهـــا إلاّ مَخـاضٌ طَـــالاَ لبعـــدِهِ قـــد أتعـبَ الرجـــالا
وأصبـــحَ الضَّبـــابُ كالنســاجِ بُـرْداً يـــمدُّه على الفِجـــاج

اتكأ الرحالة على عنصر السرد للتعبير عن الحركة والانتقال الذي تم بسهولة ويسر نظراً لهدوء الرياح ومواءمة حركة المياه . كما استند على آلية التقرير لتجسيد حالة المكان، فوصفه بكثرة الخشب، وهذا يدل على وفرة الأشجار والنباتات البرية التي جفت وخلّفت ذلك الركام، والسبب المؤثر هو ارتفاع حرارة الشمس، وقد أشار الناظم إلى ذلك، فقد ساهمت في تجفيف الأشجار وتحويلها إلى حطب . كما أن تلك الحرارة سببت للرحالة ضيقاً نفسياً، وزاد في إزعاجهم اضطرارهم إلى الخوض في المياه . ويبدو أن البحر كان في حالة جَزْر ونضوب . وأشار الطباطبائي إلى ظاهرة طبيعية ظهرت بين ذلك المكان وهي كثرة الضباب، ورسم صورة فنية فتصوّره برداً منسوجاً امتدّ واتسع ليشمل كل شيء .

* * * * * * * *

المحطة الخامسة : وهي "دوباس" :

وكانت مرفأ يقع بالقرب من ربوة في نهاية الساحل الجنوبي الشرقي أي في منطقة "رأس البر" وهو يقع في نهاية الطرف الجنوبي لجزيرة البحرين حيث يلتقي الساحلان الشرقي والغربي . ومدح الناظم هذا المكان وأثنى عليه :

حـتّى تـجاوزْنا إلى "دوبـاسِ" في ربـوةِ بتْـنا شـمالَ الـراس
يـا حُسنهُ من بنـدرٍ مقـاربِ حبلُ الخبـاءِ عند حبلِ القاربِ

.....

المحطة السابعة : وهي جزيرة "أم النعسان" :

"أمُّ نعســانَ" نــحوها عبرنـــا ... ومُــذْ رأينــا وضعَــها اعتبرنا
شاطِئها غربــاً به كهفُ جَبَــلْ ... بطــولِهِ يقطــرُ مــاءً للنَــهَلْ
يجري إلى البحرِ وينبتُ القصــبْ ... بينهمــا وذاك من أوفَى العَجَبْ
فالموجُ يرقَــى لا يميت الوجَمَــهْ ... وكلُّ صُنعِ اللهِ جَــلَّ أحكمَــهْ
في الكهفِ حوضٌ فيه صَبَّ الباردا ... منــه ارتــواءُ مــن يمرُّ واردا
وإن في أثنائها أو فــي الجــبلْ ... دُكِّدِكَ بعضُــهُ وباقيــهِ قُلَــلْ
وفيــه كــمْ مَغَــارةٍ مُضــلَّهْ ... ليستْ علــى الداخــلِ بالمظلَّهْ
وبعضُهــا يشبــهُ نـحتَ العملِ ... وموضــعُ البابِ مع القفلِ جَلِيْ
حــوضٌ مربَّعٌ أتَــى فــي ذروتــهْ ... مجرى السيولِ قاصــدٌ لوجهَتهْ
وبــعضُ عشــبٍ مزهــرٍ في سفحِهِ ... تستنشقُ الطيبَ بشــمٌ نفحهِ
فيهــا مراعٍ شــملتْ أكنافَهَــا ... تُغني ولــو لم تبلغــنْ أطرافَهَا

ربط الناظم بين هذه الوحدة والوحدة السابقة لها بمؤشرات مكانية زمانية هي "نحوها عبرنا" معتمداً على آلية السرد ومسلسلاً الأحداث من خلالها . ووقف وقفة متأنية أمام جزيرة "أم النعسان" واصفاً معالمها محدداً أبرز سماتها، وهي ظاهرة التقاء البحر بالجبل، والتي لا وجود لها في بقية الجزر . لقد فصّل جزئيات المشهد وشدّ انتباهه الكهف الذي استقر في بطن ذلك الجبل، وأثار دهشته الماء المتدفق على جوانب الكهف وجريانه في أرض مليئة بنبات القصب ثم انصباب ذلك الماء في البحر . لفت نظره كذلك الأمواج المتدافعة نحو الجبل التي لم تستطع قهره وإزالته فبقي صامداً متحدياً، ووصف الحوض الكائن في الكهف والمليء بالماء البارد والذي أصبح منهلاً

للواردين . وأشار إلى المغارات الكثيرة ذات التفريعات المتداخلة التي تتوّه من يدخلها وأثار عجبه أنها مكشوفة أمام أشعة الشمس وخالية من أية ظلال، ولجمالها وروعة منظرها تصوّرها من صنع نحّات ماهر، وذكر بروز موضع الباب الرئيسي فيها . كما التفت إلى تعاريج الجبل، وأشار إلى ما انتشر على سطحه من حفر امتلأ بعضها بالماء وكان بعضها الآخر خالياً منه . كما شدّه الحوض المربع الواقع على رأس الجبل الزاخر بالمياه المتجمعة فيه بفعل السيول . ووصف بإعجاب السفوح الخضراء المزدانة بالأعشاب المزهرة التي تنشر عبيرها الفوّاح، كما أشار إلى المراعي الخضراء المنتشرة على أطراف الجبل، وإلى الثعابين الكثيرة وتنوّعها بين حيّة وميتة، لقد أطنب الطباطبائي في وصف المشهد الطبيعي بدافع الإعجاب . وقد دفعهم الابتهاج إلى إحياء حفلة طرب تنعش نفوسهم وتعمّق الإحساس بالسعادة في قلوبهم، ولميل الناظم إلى التوثيق والتسجيل ذكر اسم المغني وهو "إبراهيم بن أحمد النديم" وأشار إلى أنه ينتسب إلى البرامكة، ولإعجابه به تصوّر أنه فاق "إبراهيم الموصلي" وابنه "اسحاق" المطربَين الذائعي الصيت في العصر العباسي، فاقهما في جمال الصوت وحسن الأداء[٢٣] .

* * * * * * * *

المحطة الثامنة : واصل الرحالة سيرهم شمالاً ومرّوا بعدة جزر لم يذكرها الناظم بالاسم، ونعتقد إن أهمّها جزيرتا "جدة" و "أم الصبان" "المحمدية" الآن . ووقف أمام ظاهرة لم ترد فيما سبق :

لمّـــا تـركناهـــا أتَـــى المسيرُ ... بين جـــــزائرٍ بها الطيورُ
ما بينَ واقعٍ بهـــا أو طائـــرِ ... قاطبـــــةً بهـاتِكِ الجـزائرِ
ترتاعُ من شـــدّةِ جَري المـــاءِ ... لضيقِ مجـرى هاتِكِ الأرجاءِ

ويوثق هذا المقطع عنصراً طبيعياً مهماً في جزر البحرين، وهو غناها بالطيور المتنوعة، واعتنى الراجز بوصف أوضاعها، فمنها ما هو طائر في الجو، ومنها واقع أو واقف على رجله على الأرض، ورصد حالتها النفسية؛ فبعضها مطمئن، والآخر قد اشتدّ

وقد رأى الصحبُ بهـــا كم حَيَّهْ ميتةٍ فيهـا وكم مـن حَيَّـــهْ

فلفظة "حيّة" الأولى اسم جنس لنوع من الثعابين، والثانية لفظة مشتقة من الحياة عكس الموت وقوله :

حتى قَدِمْنـــا باعتجـال سِـتْرَهْ واللهُ مُسْبِـل علينـــا ســـتْرَهْ

فاستخدم في لفظ "سترة" المعنيين الاصطلاحي وهو اسم موضع لإحدى جزر البحرين، والمعنى اللغوي وهو من ستر الشيء[٢٨] .

ومن الجناس غير التام وهو ما اختلف فيه اللفظان في أنواع الحروف أو أعدادها أو هيئتها من الحركات والسكنات، أو في الحروف وترتيبها . وورد الجناس المضارع، وهو ما أتى فيه الحرفان المختلفان متقاربين في المخرج، ومنه :

في الكهفِ حوضٌ فيه صَبَّ البارِدا منـه ارتـواءُ من يـــمرُّ وارِدا

حتى نزلنـــا في فنـــاءِ القَلعَـــهْ والنخـلُ حولـها إبـانَ طَلْـعَهْ

وامـحُ إلهي صُحُـــفَ الخَطَايـــا فضلاً فأنت موجـد العَطَايـا[٢٩]

ومن الجناس الذي أتى فيه الحرفان المختلفان متباعدين في المخرج، وورد بكثرة قوله في وصف كتب الحديث التي أرفقوها معهم :

كـــذا من الحديثِ سِـفْرٌ كـافـي وهـو لـداءِ الجهـلِ خيرُ شافِ

وقوله في الثناء على أصحابه :

من كلِ فاضـلٍ نقـيٍّ العِـرْضِ أشـمَّ غطـريفٍ جـوادٍ مُرْضِـي[٣٠]

ومن الجناس الناقص الذي ورد فيـــه الحرفان مختلفين في العـــدد وورد بكثـــرة — أيضاً — وعلى الخصوص ما سمّي "المطرّف"، وهو ما يرد بزيادة حرف واحد فقط كقوله في تقريظ أخلاق الرفاق :

باعـوا الخلافَ واشـتروا وِفاقـا والكلُّ في حـسنِ الطـباعِ فاقَـا

تـرى بهـا عجائبَ المبـانـي دلّتْ على علوِّ شـأنِ البـاني

ومن الجناس المذيّل وهو ما زاد فيه أحد اللفظين على الآخر بأكثر من حرف :

فيها ينابيعُ الميـاهِ قد جَـرَتْ في بـرِّها وبـحرِها تَفَجَّرَتْ

وقوله في ذمّ رجل:

لا يحسنُ القـولَ ولا استمـاعَه يحسبُنـا نغصبُـهُ مَتَـاعَهْ

ومن الجناس المذيّل الذي ورد فيه اللفظان متجاورين فزادت جرعة الموسيقى:

مَرَّ بنـا في عـامرِ النخيـلِ راقَتْ ولـو بظلِّهـا الظَليلِ

الطباق:

للطباق وظيفة دلالية لا تخلو من جمال، فله دور في توضيح المعنى بما يكشفه من ضدّ وضدّ الضّد، وما يخلفه من صلات بين الألفاظ والمعاني .

وأغلب ما ورد من طباق في المنظومة هو في مقام القافية، وغالباً ما يأتي اللفظ الأول في بداية العجز والثاني في نهايته، أي في مقام القافية . وأكثره يرد منسجماً أي بين اسم واسم كقوله مطابقاً بين لفظين بينهما شبه تضاد :

لـم يكنِ الساحـلُ ذا ابتعـادِ مَلاَحُنا يجيبُ نـجوى الحادي

وينمّ الطباق عن حالة من التجاوب بين الصوتين كما يكشف عن واقع التناغم والتآلف بين بيئتي البر والبحر[٣١]، وقد يأتي المتضادان منوعين بين فعل واسم :

فسيحـةٌ بديعـةُ التفصيـلِ يقصـرُ عنها الوصفُ بالتطويـلِ

ويشي اللفظان المتضادان بعظمة القلعة فمهما أطال المتحدث الحديث عنها فكلامه قاصر عن إيفائها حقها .

وقد يرد لفظا الطباق متجاورين في نهاية العجز، مثاله :

حَـاطَ بهـا سـوران ثم الخندقُ يعجـبُ راءٍ عَرضُـه والعُمُـقُ

فالإحكام في البناء شامل لأجزاء القلعة بما فيها من طول وعرض واستعمل الناظم لفظة شبه متضادة لأن عكس العرض هو الطول وليس العمق .

وقد يرد اللفظان موزعين بين حشو العجز وقافيته :

قد أوثقوا العهدَ على صِدقِ الإخَا في حالةِ الشـدة أو حـالِ الرخَـا

ودلّ الطباق على دوام الإخاء واستمراره بين أصحاب الرحلة؛ يستوي فيه حالتا الغضب والرضا[٣٢] ونادراً ما ترد مفردتا الطباق في حشو العجز كقوله :

فيها ينابيعُ الميـاهِ قـد جرتْ في بـرِّها وبـحرِها تَفَجَّـرَتْ

ويوحي المتضادان بانتشار العيون في جزر البحرين بما فيها من عيون برية وعيون بحرية، فضلاً عن خدمة الطباق للمعنى فقد أغنى الموسيقى لما بين اللفظين من مجانسة . وقد يأتي اللفظان المتضادان موزعين بين الصدر والعجز، وهو قليل. ومما ورد أحد اللفظين في مقام الضرب والثاني في حشو العجز :

وقـد أزاح اللـه عنـا الثُقـلا فـلا تـرى إلا ظِـرافاً نبـلا

ووسم الناظم أصحابه بخفة الدم وميّزهم عن الثقلاء، الذين أبعدهم الله عنهم . ومما ورد فيه اللفظتان المتطابقتان موزعتين بين الضرب والعروض قوله :

سرنا على اسمِ اللهِ في مجراهما كذاكَ باسـمه لـدى مـرساهمـا

ودلّ الطباق على توكل الرحالة على الخالق في جميع الحالات سواء في حالة توقف القاربين أو في حالة سيرهما . وقد يرد لفظا الطباق متباعدين موزعين بين حشو الصدر وقافية العجز :

نجني ثمـارَ الـجدِّ في فنـونِ طـوراً وطـوراً مِلْـحَ المجونِ

ويوحي لفظا الطباق بتنوّع أحاديث الرحالة واختلافها بين أحاديث علمية جادة ونكات هازلة .

ونادراً ما تأتي اللفظتان في صدر البيت كقوله :

مـا بينَ واقـعٍ بهـا أو طائـرِ قـاطبـةً بهـاتك الجـزائرِ

ونمّ الطباق عن تنوّع حالات الطيـور وأوضاعها التي حلّت بتلك الجزيرة أو سكنتها .

أما المقابلة وهي المطابقة المبنية بين جملتين فنادرة، ووردت مرة واحدة فقط وهي :

(باعوا الخلافَ) و(اشتروا وِفاقا) فالكلُّ في حسنِ الطباعِ فاقَـا

وتوحي المقابلة بقوة اللحمة بين رفقاء الرحلة، فقد انصرفوا عن كلّ ما يوقع الفرقة بينهم، وشبكوا أيديهم على التآلف والتلاحم فيما بينهم وعلى أية حال لم يثقل الناظم المنظومة بالبديع ولم يسرف في استخدام فنونه .

التصوير

الصورة من الآليات المهمّة في العمل الفني، ودعامة رئيسة في مجال وصف الأحاسيس والوجدان الإنساني، ومصدرها الخيال حين يقترن بالحياة العاطفية الزاخرة بالمشاعر. واستخدمها الطباطبائي بشكل محدود؛ فقد كان يميل إلى التعبير المباشر عن معانيه، ولا غرو فقد كان يصوغ نظماً ولا يكتب شعراً. وأكثر ألوان التصوير أتى في مجال الوصف وشكّلت الطبيعة أهم مصادر الخيال عنده ففي إطارها تنزّه ودار، وفي ربوعها تلذّذ واستمتع، فلا عجب أن تلهمه وتغذي خياله. فأتت في المنظومة مادّة موصوفة، كما أتت مادة واصفة. وتركزت جلّ صوره على عناصر الطبيعة الساكنة، من ظواهر طبيعية كالسراب والأمواج والسحاب والأطلال والصبح والليل والصحراء؛ وقلّ ورود الطبيعة الحيّة، من حيوانات وطيور .. الخ .

ويأتي التشبيه وهو أبسط أنواع الصورة على رأس الصور الشعرية في الأرجوزة . ومما أتت فيه الطبيعة مادّةً موصوفة وواصفة في الآن ذاته قوله : "في رملة كأنها الدهناءُ" فقد ماثل رمال الساحل في نعومتها ولطفها برمال صحراء الدهناء .

وقد تأتي الطبيعة مادّةً موصوفة، وهو الغالب . وفي هذا السياق عادة ما يربط بين الطبيعة ومقتنيات الإنسان، من ذلك تشبيهه الضباب في امتداده وانتشاره بالبرد المنسوج الواسع الذي أسدل على الطرق فغطّاها :

وأصبحَ الضَّبابُ كالنساجِ بُرْداً يمدُّه على الفِجاجِ

واستخدم الطبيعة مادة واصفة بشكل محدود؛ فقد ضارع الموضوعات التي تداولوها في أحاديثهم بأزهار البساتين في الصباح الباكر في عبقها ليدل على عذوبتها وإنعاشها للنفوس :

من كلّ معنًى في الحديثِ مبتكَرْ كأنهُ زهرُ الرياضِ في البكَرْ

واستطاع الناظم من خلال تجسيد المعنوي في صورة المادي أن يعبر عن أثر تلك الأحاديث وقدرتها على إمتاع القلوب . وإذا غلب على تشبيهاته التشبيه المرسل، وهو ما ذكرت فيه الأداة، فإنه استعمل التشبيه البليغ (المؤكد) وهو ما حذفت منه أداة التشبيه، وبدرجة أقل . فقد ماثل المركب وقد احتضنهم بالصندوق وهو يحمل بالبدر، وهي الأكياس المحتوية على الأموال، فدلّ بذلك على نفاسة المركب والركّاب :

أرفَهُ مركوبٍ وفي خيرِ مقرْ تضمُّنا ضمَّ الصناديقِ البدَرْ

وترد الكناية في المنظومة بشكل محدود، ومن كناية الموصوف والتي تدل على المكنّى عنه :

نجلُ الهمامِ الباسلِ المغوارِ إذا علتْ غياهبُ الغبارِ

فالشطر الثاني يرمز إلى ميدان القتال حين يحتدم الوغى ويثور غبار الوطيس فدلّ بذلك على المجال الذي تتجلّى فيه شجاعة الممدوح .

ومن كناية الصفة والتي تومئ إلى صفة يتجلّى بها الموصوف وهو الممدوح هنا :

الماجدُ الندبُ الـجوادُ العبقـري كهفُ العفـاةِ غيثُ مـحلٍ مُغْـبرِ

فالشطر الثاني تجسيد لخلق الكرم والجود الذي يتمتع به الممدوح . أما الاستعارة فترد بندرة وقلة، ومنها :

باعـوا الخلافَ واشتروا وِفاقـا فالكلُّ فـي حـسنِ الطباعِ فاقَـا

فصوّر الخلاف شيئاً مادياً يباع، والوفاق عنصراً يشترى . وتتمثل الاستعارة التصريحية في قوله :

المنـــزلُ الذي عَفَـتْ رسُـــومُهُ مُـــذْ أفلتْ من أفقـــهِ نجومُـهُ

فرمز بالنجوم الآفلة إلى سكان الديار الذين رحلوا عنها وأوحشوها وكانوا كالنجوم رفعة وضياء وهداية وعطاء .

ويلاحظ أن العنصر الرئيس الذي حظي بالنصيب الأوفر في تقنية التصوير هو وصف الطبيعة، فقد كانت تخلب لبّه، وتحرّك مشاعره وتفتق خياله، فينزع إلى التصوير، ووصفه لجمال قلعة البحرين بسحر بساتينها وفتنـة طبيعتها، وقد مرّ خير مثال على ذلك . على أن جلّ صوره أتت مستهلكة ليس فيها جديد .

السردية في خطاب المنظومة

منظومة "نزهة الجليس" نص سردي قوامه بنية سردية تهدف إلى نقل الواقع المادي بشكل مباشر . وشكّلت هذه الأرجوزة فضاء مفتوحاً توافرت فيه مقومات السرد، وتاريخية الوقائع وجغرافية الأمكنة[٣٣] . وهي وإن اقتربت من القصة نراها ليست جنساً قصصياً يخضع لشروط القص وحسب، فهي رحلة لها واقعها التاريخي بأشخاصها وأزمنتها وأمكنتها. فهي نمط من القصة والتاريخ، وفيها من القصة عنصر التشويق، كما توفر فيها من القصة آلية السرد التي سيطرت على خطابها، وكان صوت الناظم هو

المسيطر فيها . وتمثل التاريخ في الجانب التوثيقي الذي برز في هذا العمل من ذكر للأسماء والوظائف والتواريخ التي توثق ارتباط الرحلة بزمن معين[٣٤] .

وقام الطباطبائي بدور مزدوج، فقد قام بالفعل المادي للرحلة وهو الارتحال والتنقل، فهو البطل الروائي الذي خاض غمار هذه التجربة الدرامية بما فيها من مواقف، وهو الذي تجوّل وراقب ما رآه ورصده في فضاء الرحلة الذي تحرّك فيه . وقام في الوقت ذاته بعمل آخر موازٍ وهو سرد مشاهداته وما صادفه من أحـداث مستخدماً ضمير المتكلم الجمع .

وقدّم لنا تلك الوقائع بواسطة آليتي الوصف والسرد، فالوصف وبحكم طبيعته الحركية ذات العمق الزمني، دفعنا باستمرار إلى معاينة المكان، ومواصلة الانتقال عبر الأمكنة التي توقف عندها الرحّالة واصفاً وبشكل يجعل كل مكان مميزاً عن الآخر . ووضعتنا الأوصاف تلك أمام عوالم قابلة للتجسيد بحيث جعلتنا قادرين على تشكيل صورة مادية ملموسة للأماكن المذكورة . وبطبيعة الحال لم يكن الناظم يصف إلا ما يترك في نفسه أثراً إيجابياً أو سلبياً، وبتأثير ذلك لا غرابة أن نجد في خطاب الرحلة مقاطع تقوم على الحذف والتلخيص، وأُخَر تسهب في ذكر الجزئيات والتفاصيل . ولأن الرحّالة يقدم لنا معرفة مبنية على العيان كانت غالباً معرفة موضوعية لا مجال فيها للكذب، وإن كانت تمثل رؤيته أو وجهة نظره، وعلى ذلك قام بعملية إنطاق وتلفيظ للرحلة وسرد ما رآه ورواية ما شاهده ورصد جزئياته، وذكر ما وقع عليه . فجعلنا وبشكل دائم أمام أحداث تجري قبل الآن، الأمر الذي دفعنا بصورة خاصة إلى ملاحقة تبدل الحدث وجريانه في الزمان وحتى النهاية[٣٥] . واضعاً إيانا وبتلك الآلية أمام عوالم خطابية قابلة للتخييل .

فصيغة الخطاب في الرحلة مختزلة في ثنائية السرد والوصف (التقرير)، ومن خلالهما تتحصّل لدينا معرفة موضوعية عن الفضاء الذي تمت فيه الرحلة .

لقد تماهى في بنية الرحلة خطاب الرحلة مع فعلها ومع عوالمها، وسعى الرحّالة الناظم إلى مواكبتها منذ البداية حتى النهاية مبتدئاً بتحديد دوافع الرحلة، وزَمَن الخروج ومكانه . كما عنى بتحديد جلّ انتقالاته في المكان، فواكبَ خطابُ الرحلةِ تلك

التحولات، وحتى الرجوع إلى نقطة الانطلاق، فكنا مع الرحّالة أمام فعل دائري يصحبه خطاب دائري[٣٦]، فانبنى ذلك الخطاب على الترتيب والتسلسل وظلّ فعل الرحلة يقوم على التحديد الزماني كلما تمّ الانتقال في المكان .

وأدّت المؤشرات الزمانية والمكانية وظيفة ملء المسافة الفاصلة بين زمن الخروج وزمن الرجوع، فعملت على مفصلة خطاب الرحلة، وتقسيمها إلى مراحل ومحطات. وعمل التناوب في بنية الرحلة بين السرد والوصف، التقرير، على ترابطهما وتكاملهما. وقد جعل السرد إطاراً لخطاب الرحلة، والوصف متضمناً، ولكنه الأساس، فبالسرد افتتح الخطاب وبه انتهى . وملأت المؤشرات المكانية والزمانية المسافة الفاصلة بين زمن الخروج وزمن الرجوع، ومن تلك المؤشرات: "ثم ارتحلنا"، "حتى تجاوزنا"، "ثم قطعنا"، "حتى نزلنا"[٣٧] .

هكذا التقى في أثناء منظومتنا الأدب بالجغرافيا والتاريخ . وقد بدت الصبغة الأدبية بارزة، وتمثلت في سياق التفاعل الحي بين الناظم والطبيعة . وتجلّت القيمة الوثائقية من خلال الوصف الذي شكّل محوراً مهماً في بنية النص، فقد اتخذه الناظم آلية فنية، وأداة لتسجيل ما تقع عليه عيناه من صور، وكان يشرك حواسه الأخرى في ملاحظة ما يراه من مشاهد تشدّه فيقف بحدقته أمام مناظر الطبيعة ويتقراها ببصره، ويسجّل بشكل تقريري ما يراه من أشكالها وصفاتها تقريراً واقعياً وبكل أمانة وصدق. وأتت أغلب مشاهده أسيرة الإطار المادي الخارجي . وعلى أية حال فقد شكّلت منظومة "نزهة الجليس" عملاً فنياً متميزاً بالنسبة إلى زمانها على الرغم مما فيها من هنات، وكانت إضافة متميزة بالنسبة للأدب الجغرافي العربي خاصة عندما تكون مرتبطة بمنطقة بقيت مدة طويلة تحت الظل وأسيرة النسيان . وفي زمن انحدر فيه الأدب العربي .

د. عبد الجليل منصور العريض

كلية الآداب — جامعة البحرين

مـــرفق (١)

نـزهة الجليس في وصف الديار

(من الرجز)

١ – قالَ الفقيرُ المذنبُ الجاني الأقلْ ... عبدُ الجليلِ ذُو الخطايا والزللْ

٢ – هـــو ابـــنُ يس سليـل الهـادي ... مستمنحـاً مواهـب الـجواد

٣ – الحمـدُ لله الكريـــم المنعـم ... مَـنْ ذكـرُهُ أنـسُ الحـنيف المسلمِ

٤ – ثـــم الصـــلاةُ مع سـلامٍ دائـمِ ... علـى النبـيِّ المصطفى من هاشمِ

٥ – والآلِ والأصحـــاب والأتبـــاعِ ... ما لذت النزهـــة في الطبـــاعِ

٦ – وبعـــده فخـيرُ لـذات الدُّنـــا ... طيبُ اجتمـــاعٍ بالكـرام الفطنـا

٧ – لا سيّمـــا في أرض منتـزه رَضيْ ... يُفصحُ كل فيـه ما قـد يقتـضي

٨ – من كلِ معنَـى في الحديثِ مُبْتَكرْ ... كأنـــهُ زهـــرُ الريـــاض في البُكرْ

٩ – نجـــني ثـــمارَ الـــجدَ في فنـون ... طـــورا وطـــورا ملـحَ المجـون

١٠ – فذاك للأريب أهنَـى مكتسبْ ... لا يرتـوي منه الظريفُ ذو الأدبْ

١١ – كذا أبـــو الوليـــد عبد الملك ... قـد صحَّ عنه، أن ذا عنه حُكي

١٢ – من قولـه شبعـــتُ مما أشتهي ... إلا أحـاديـثَ الرجـــال النبَـــه

١٣ – وكانَ مما يسَّرَ الـــربُّ الحفـــي ... أنـــا خرجنـــا نقصدُ النزهة في

١٤ – صُبحِ الخميسِ النصفَ من شهرِ رجب ... في خامسِ الحوتِ وذا فصلٌ يُحبّ

١٥ – من سنةٍ في ضَبْطها أَرّخنَا ... "عَنّيَ للنزهةِ قُل خَرجنا"

١٦ – في رفقةٍ غُرّ الوجوه كُمَّل ... ما منهُمُ إلا فصيحُ المقْوَل

١٧ – قومٌ كرامٌ من كرامٍ تُنْمَى ... ممّنْ زكا خالاً وطابَ عَمّا

١٨ – قد ملكوا محاسنَ الأخلاق ... من كلِّ قرْمٍ للعُلاَ سَبّاق

١٩ – باعوا الخلافَ واشتروا وفاقا ... فالكل في حُسنِ الطباعِ فاقَا

٢٠ – قد أوثقوا العهدَ على صدقِ الإخا ... في حالة الشّدة أو حالِ الرخا

٢١ – من طبعهم إيثارُ ما تشاءُ ... لهم بذلكَ اليدُ البيضاءُ

٢٢ – أنعمْ بهم من معشرٍ أكارمِ ... قد ارتقوا إلى ذوي المكارمِ

٢٣ – جزاهُمُ اللهُ بخيرٍ ما جَزَى ... لصالحِ الإخوانِ في يومِ الجَزَا

٢٤ – وقد أزاحَ اللهُ عنا الثُقلا ... فلا ترى إلا ظِرافا ثُبلا

٢٥ – غلمانُنا كلٌ خفيفُ الروحِ لا ... ينفكُّ في بشرٍ وطبعٍ سَهْلا

٢٦ – لا يعبسونَ في صعوباتِ الخدمْ ... يخشونَ أن يُقالَ فيهمُ ما يُذمّ

٢٧ – من كلِّ سبّاقٍ إلى المرادِ بهْ ... كلٌّ أبى سَبْقا يُرَى لصاحبهْ

٢٨ – سلاحُنا الأسيافُ والبنادقُ ... وبالرماية الجميعُ حاذقُ

٢٩ – وقد صَحبنا معنا أسفارا ... نقطفُ من أسطارها أزهارا

٣٠ – من نكتةٍ نادرةٍ لطيفهْ ... تختارُ للسمعِ بها تشنيفهْ

٣١ – أو بيتِ شعرٍ ذي معانٍ حاليه ... أو قصةٍ عن القرونِ الخاليهْ

٣٢ – كذلكَ الفقهُ لدينا منهْ ... ما لم يكُنْ لنا غناءٌ عنهْ

٣٣ – كذا من الحديثِ سفرٌ كافي ... وهو لداءِ الجهلِ خيرُ شافي

٣٤ – قد امتطينا قاربين حُفا ... بحسن تيسير الإله لطفا
٣٥ – قد أُحكما صناعةً وعدّهْ ... أسرعُ من طرف تُطيل مُدّهْ
٣٦ – أرفهُ مركوب وفي خير مقرّ ... تضمّنا ضمّ الصنادِيق البدَرْ
٣٧ – لا كالجوار المنشئات في العظَمْ ... إذا رأيتَها حسبتَها عَلَمْ
٣٨ – بل إنما هما لطيفا جُرُم ... ليجريا في البحر إذا لم يَطِم
٣٩ – لمّا ركبنا كانت الريحُ لها ... تحرّكٌ مطابقٌ للمُشْتَهى
٤٠ – سرنا على اسم الله في مجراهما ... كذلكَ باسمه لدى مرساهما
٤١ – حتى قدمْنا باعتجال "سترة" ... واللهُ مُسْبِل علينا ستره
٤٢ – ترى بها النخيل باسقات ... من كل نوعٍ لذ للجنات
٤٣ – فيها ينابيعُ المياه قد جرتْ ... في برّها وبحرها تفجّرتْ
٤٤ – فمذ نزلناها ضحى النهار ... في دار بخاخ بلا استقرار
٤٥ – أقبل دعبل بما نحتاجُ لهُ ... من حَطَب النخل وذاك ناقلهُ
٤٦ – من ذلكَ الأكار أكار السري ... مبارك الاسم كريمُ العنصر
٤٧ – نجلُ الهمام الباسلَ المغوار ... إذا علتْ غَيَاهبُ الغبار
٤٨ – وخفّ قلبُ البطلَ الكرّار ... تلقاهُ عندَ الروع مثل الضاري
٤٩ – يخضبُ مُتْنَ الصارمِ البتّار ... من هامة القرم الجريّ الواري
٥٠ – عنيت عبدَ الله نجلَ أحمد ... سامي الذرى ربّ العُلا والسؤدد
٥١ – الماجدَ الندبَ الجوادَ العبقري ... كهفَ العُفاة غيثَ مَحْل مُغبر
٥٢ – أمّ الوفودَ بَحْوَه أفواجا ... لرفده قد قطعوا الفجاجا
٥٣ – يعرفُ كل باغضٍ حسود ... أنه الوفيُّ بالعهود

٥٤ – عاشَ بـه الـجـارُ على الوقـارِ منعـــة وعـــــزة الجـوار
٥٥ – من مَعشرٍ شُمٍ تعـاقدوا على حُسنِ السَّجايا وأكتساب للعُـلا
٥٦ – آلِ خـليفةَ عظـامِ المفخـرِ من كلِ قـــرْمٍ ماجـد غضنفرِ
٥٧ – ومُذْ غنمنـا نزهةَ "الجزيـره" سرنا إلى "جو" بحسنِ سـيره
٥٨ – المنـزل الذي عَفَتْ رسُـومُهُ مُذْ أفلتُ من أفقـه نَجـومُهُ
٥٩ – من بعد ما كانَ محـط الرَّحْـلِ يلقى بها الطارقُ خيرَ أهـلِ
٦٠ – ومعقلَ الوُفُـود والضيـوفِ ومأمنَ الطـريد والمخـوف
٦١ – يزينُـهُ غُـرٌّ بـه سُـكانُ هُـمُ الحُمـاةُ الصيدُ والشجعانُ
٦٢ – من كلِ فاضلٍ نقيّ العـرْضِ أشـمَ غطـريف جـواد مُرْضي
٦٣ – دارٌ لربات الـحجال الخُـرَّدِ من كلِ هيفـاءَ بقـدٍّ أمْيَـدِ
٦٤ – ذات اللمَى المعسول والثغرِ الشَّنبْ وعقـرب الصـدغ لمضناها تدَبْ
٦٥ – تـرسل من شـعورها أفاعيا تنهشُ قَلْبَ الصبّ وهي ما هيا
٦٦ – فأصبحتْ أطلالُهـا تُسائلُ أينَ الدُمَى وهاتك الخـلاخلُ؟
٦٧ – قضَى عليها الدهرُ بالخرابِ حتَّى غـدَتْ مَسـاكنَ الضبَاب
٦٨ – وذاكَ أمرُ الله حيثُ أحكمـه بـدا بأهلهـا اختلافُ الكلمه
٦٩ – واحتوشتْ أرجاءَ أهليها العدَى جنـدُ سعود والذي به اعْتَدى
٧٠ – ظلماً فجاءها بكل مصلت وقـد أمدّهـم إمامُ "مَسْكَت"
٧١ – وبعضُ أهليها نحَى الخيانه بغيـاً بلا جُـرمٍ ولا امتهـانهْ
٧٢ – بـل قادهم لذلك الرجيـمُ ومن يخـونُ غـادرٌ ذميـمُ
٧٣ – فاختارت الأشياخُ منها الرحله من قبـل أن تلحقهم مذلـهْ

٧٤ – فعادت الدارُ طللاً خاويه ... فلا يجيبُ الربعُ منها داعيه

٧٥ – سوى فريقٍ حَل منها ناحيه ... وكلهم في الصَّيد هاد داهيه

٧٦ – مُميزُ الأجناس والأنواع ... في سرد أسماها طويلُ الباع

٧٧ – لا يجهلُ الحيَانَ فرداً فردا ... يعرفُ بدءَ صيدها والحدَّا

٧٨ – من حاذقٍ في صيدها منعوت ... شباكُهُ آفةُ كلِّ حوت

٧٩ – يقول هذا النوع فصلُهُ دخلْ ... يُرَى غداً وسطَ الشباك قد حَصَلْ

٨٠ – وفصل ذا قد انتهى من أمسِ ... فلم يردْ بعد غدٍ في حَدْسي

٨١ – فبادرونا منه بالغضّ الطري ... من خير موجود بزعم المُخْبِر

٨٢ – وكلِ "جرجور" طويلَ السَّيف ... فأكثروا منه بغير حَيف

٨٣ – وقد وردنا منهلاً مُستصفى ... فيها مريئاً سُكرَّياً أصفى

٨٤ – بتْنا ثلاثاً فيه بالتوالي ... لعبرة بهاتك الأطلال

٨٥ – ثم ارتحلنا الصبحَ للجنوب ... فزادَ فينا الريحُ بالهبوب

٨٦ – حتى تجاوزنا ضحىً "حَدَّ الجَمَل" ... هناك أرسينا بمنزلٍ يُمَل

٨٧ – في قفرة ليسَ بها أنيسُ ... ولا يعافيرُ وليسَ عيسُ

٨٨ – ثم قطعنا منتهى "البحرين" ... صبحاً وجَرْيُ الريح بالهوين

٨٩ – حتى نزلنا "الراسَ للعَياش" ... من غير ازعاجٍ ولا انكماش

٩٠ – بتْنا بأرضٍ خيرُ ما فيها الحطبْ ... لكنْ من الشمس أتى بعضُ التعبْ

٩١ – ما شانها إلا مَخاضٌ طالا ... لبعده قد أتعبَ الرجالا

٩٢ – وأصبحَ الضبابُ كالنساج ... بُرْداً يمدُّه على الفجاج

٩٣ – وقد تركنا ذلكَ المكانا ... وغيره نحتُه قاربانا

٩٤ – وذلك اليومَ الهـوا عنـا ركَدْ ... بقـدرِ ما ينسجُ في البحـرِ زَرَدْ

٩٥ – حتّى تجـاوزنا إلى "دوبـاس" ... في ربـوة بتّنـا شمالَ الـراس

٩٦ – يا حُسنَهُ من بنـدر مقارب ... حَبْلُ الخَبـاء عند حبلِ القارب

٩٧ – أرضٌ بهـا تنشرحُ الصُـدورُ ... عنهـا تقـولُ الصحبُ لا نَسـيرُ

٩٨ – في رملة كأنهـا "الدهنـاءُ" ... طيّبـة لـذ بهـا الثـواءُ

٩٩ – رياضُهـا تحفّهـا كثبـانُ ... ينبتُ فيهـا الشيحُ والحـوذانُ

١٠٠ – كذلك الطـرفـاءُ والثّمـامُ ... والمـرخ والأرطـاةُ والرمـرامُ

١٠١ – فيهـا كثيبٌ زانَ بـارتفـاعِ ... تنظـرُ منـه غـالبَ البقـاعِ

١٠٢ – يا طيْبَ ليلتين قد بتْناهـا ... في هاتك الربـوة ما أهناهـا

١٠٣ – فيها أتانا ابنُ هـلال جمعـهُ ... إذ مازجَ اللـؤمُ عيـاناً طبعَـهُ

١٠٤ – لا يحسنُ القولَ ولا استماعَـه ... يحسبُنا نغصـبُهُ متـاعَـهُ

١٠٥ – نقولُ بعنا بعضَ ذي الحيتـانِ ... بما تـرَى من أحسـنِ الأثمـانِ

١٠٦ – بحكمكَ الجائر نحن نـرضى ... فاحكمْ وخذْ وأدّ هذا البعضـا

١٠٧ – وهو يصيحُ إنكـم نَهّابـهُ ... ولم يـزل بـهـذه المثـابهُ

١٠٨ – قلتُ دَعـوهُ ودعُـوا جرابَـهُ ... هـذا من القبـحِ حشـا إهابَـهْ

١٠٩ – لا خيرَ في غالبِ جَلاّبي السمكْ ... طبـاعُهم للؤمِ تغْني عن شَـرَكْ

١١٠ – ثم ارتحلنا الصبحَ للشمـال ... نطـوي قـرى السـاحلِ بالتوالـي

١١١ – نقولُ ذي "الزلاقُ" قلعةُ "صَدَدْ" ... ننظـرُها من سَبَـدٍ ومن لَبَـدْ

١١٢ – لم يكنِ الساحلُ ذا ابتعـاد ... مَلاّحُنـا يجيبُ نجـوى الحـادي

١١٣ – وذلك النهارُ قلنـا في "العقـا ... ريه" المقيـلُ فيهـا لـم يُطـقْ

١١٤ – فيها البعوضُ صائلٌ والساحلُ ... في النتن ذاكَ مستراحٌ سائلُ

١١٥ – تظلنا عُرْشٌ بها وخيمهُ ... يا قبحَها منازلاً ذميمهُ

١١٦ – مبيتنا كان برمل سلس ... بخير موضع لطيف سَلس

١١٧ – أنزهُ سبسب من الصحاري ... في قرب جدول زُلال جاري

١١٨ – فيها بشيرٌ جاءَ بالمطعوم ... كل لذيذ سَاغ في الحلقوم

١١٩ – "أمُّ نعسانَ" نحوها عبرنا ... ومُذ رأينا وضعَها اعتبرنا

١٢٠ – شاطئها غربا به كهفُ جَبَلْ ... بطوله يقطرُ ماءً للنَهَلْ

١٢١ – يجري إلى البحر وينبتُ القصبْ ... بينهما وذاك من أوفى العَجَبْ

١٢٢– فالموجُ يرقى لا يميت الوجَمَهْ ... وكلُّ صُنعِ اللهِ جَلَّ أحكمَهْ

١٢٣ – في الكهف حوضٌ فيه صُبَّ الباردا ... منه ارتواءُ من يمرُّ واردا

١٢٤ – وإن في أثنائها أو في الجبلْ ... دُكدك بعضهُ وباقيه قُلل

١٢٥ – وفيه كمْ مَغارة مُضلهْ ... ليستَ على الداخل بالمُظلهْ

١٢٦ – وبعضها يشبهُ نُحتَ العملِ ... وموضعُ البابِ مع القفلِ جَلي

١٢٧ – حوضٌ مربَّعٌ أتى في ذروتهْ ... مجرى السيولِ قاصدٌ لوجهَتهْ

١٢٨ – وبعضُ عُشب مزهر في سفحه ... تستنشقُ الطيبَ بشمِّ نفحه

١٢٩ – فيها مراعٍ شُملتْ أكنافَهَا ... تُغني ولو لم تبلغنْ أطرافَهَا

١٣٠ – وقد أتانا العصرَ "ابراهيمُ" ... فيها هو ابنُ أحمدَ النديمُ

١٣١ – يغنيكَ عن سميه ونجله ... الموصلين بحسن فضله

١٣٢ – فنُّ الموسيقى غدا استاذهُ ... مع حفظ ما نطلبهُ انشادهُ

١٣٣ – من آل "برمك" نشا في "البصره" ... له بها قبيلة وأسرهُ

١٣٤ – وقد رأى الصحبُ بها كم حَيَّهُ ... ميتـة فيهـا وكـم من حَيَّـهُ

١٣٥ – لمّا تركناهـا أتى المسيرُ ... بين جزائرٍ بهـا الطيورُ

١٣٦ – ما بينَ واقعٍ بها أو طائـرِ ... قاطبـة نهاتـك الجزائـرِ

١٣٧ – ترتاعُ من شدّة جَري المـاءِ ... لضيـقِ مجرى هاتك الأرجاءِ

١٣٨ – حتى نزلنا في فنـاء "القلعَـةُ" ... والنخـلُ حولهـا أبانَ طلعَـةُ

١٣٩ – فجاءنا ريحـانُ فيهـا عازمـاً ... وابنُ رضـيٍ عـازمـاً منادمـا

١٤٠ – مَـرَّ بنـا في عـامرِ النخيـلِ ... راقتْ ولـو بظلهـا الظليـلِ

١٤١ – أشجارُهـا تنوّعتْ أزهارُهَـا ... غنّى على أفنانهـا هَـزَارُهَـا

١٤٢ – كأنما الأُتْرُجُّ في الأوراق شـبْ ... في خيمةٍ خضـرا قناديلُ ذهـبْ

١٤٣ – وزهـرُهُ في قمْعـه كأنملَـهْ ... من فضّـةٍ زمـرُدا مُكللـهْ

١٤٤ – والـوردُ فيهـا قـد زهَا احمرارُهُ ... كـم سكّرتْ بظلّـه أطيـارُهُ

١٤٥ – وخَـوخُهـا معطـرُ الأفيـاء ... وزهـرُهُ كالقبّـة الحَمـراء

١٤٦ – والماءُ جارٍ قد صفتْ جداوُلهُ ... واستُعذبتْ لـوارد مناهلُـهُ

١٤٧ – منظـرُ هـذي القلعـة العظيمهْ ... تعـرفُ منهـا أنهـا قـديمـه

١٤٨ – أركانُهـا محكمـةُ البنـاء ... بطـرفهـا تشـيرُ للسمـاء

١٤٩ – صخـورُها منحـوتة مربعهْ ... عظيمة السُّمك بطـول وسعَـهْ

١٥٠ – فسيحـة بديعـة التفصيـلِ ... يقصرُ عنهـا الوصفُ بالتطويـلِ

١٥١ – حَـاطَ بها سورانِ ثم الخندقُ ... يعجبُ راء عَرضَه والعُمُـقُ

١٥٢ – قصورُها ناءتْ عن القصيرِ ... وقد زهتْ بزخـرف التعميرِ

١٥٣ – ترى بـها عجائبَ المباني ... دلتْ على علوّ شأنِ البانـي

١٥٤ – من شادها مرادُهُ الخليدُ ... إذْ ما على إحكامها مزيدُ

١٥٥ – وقد قضَى اللهُ بنفي الخُلد ... وطالبُ الخلاف غير مَهدي

١٥٦ – فانكشفتْ لذاك خيبةُ الأملُ ... إذْ رجعتْ تلك المقاصيرُ طَلَل

١٥٧ – بها اعتبارٌ لذوي الأبصارِ ... دَل على نفاذ حكم الباري

١٥٨ – فيها أتانا ناصرُ ابنُ زيْنِ ... فنعمَ صاحبٌ وخيرُ خدْنِ

١٥٩ – أفادنا بسائر الأسعارِ ... وما طرا من حادث الأخبارِ

١٦٠ – وبعدما ملنا إلى الرجوعِ ... للأهل قبل آخر الأسبوعِ

١٦١ – هَبَّ علينا عاصفُ الشمالِ ... فلم نجدْ وجهاً للارتحالِ

١٦٢ – ثم توجهنا إلى البلادِ ... بخير حال مقتضى المرادِ

١٦٣ – في ضحوة الخميسِ مُنْتَهَى رَجَبْ ... جئنا إلى المكان إذ نلنا الأربْ

١٦٤ – به انتهتْ رحلتنا الميمونهْ ... بطالع السعد أتتْ مقرونهْ

١٦٥ – سمّيتُها بنزهة الجليسِ ... حيث بدتْ بديعة التأسيسِ

١٦٦ – وبعد ذا أستغفرُ اللهَ الذي ... لم نرَ غيرَ عفوه من منقذِ

١٦٧ – يا مالكَ الملك ويا رباهُ ... يا سامعَ العبد إذا دعاهُ

١٦٨ – يا واجبَ الوجود يا ألله ... يا مَوئلَ العاني ومُلتَجاه

١٦٩ – يا راحما ليس لنا سواهُ ... أدعوك يا غوثاهُ يا غوثاهُ

١٧٠ – أغثْ عُبَيْداً خافَ ما جناهُ ... إذ لم يخالفْ لحظة هواهُ

١٧١ – فارحمْ مُقراً بالذنوب ثابتا ... باك ذليلاً ذا افتقار شائبا

١٧٢ – وامحُ إلهي صُحُفَ الخطايا ... فضلاً فأنتَ موجدُ العَطايا

١٧٣ – وجُودُك الواسعُ لن يضيقا ... بنا فقلْ يا عبدُ كُنْ عتيقا

١٧٤ – من العذاب والحسـاب المتعب إذا جثـا الخـلـقُ غداً للركَب
١٧٥ – والطفْ بنَا في كلِ ما تَقـدّرَ وعـافنـا من كلِ أمـرٍ يُحْـذرُ
١٧٦ – واعـفُ عـن الآبـاء والجيرانِ وعُـمَّ بالعفـو ذوي الإيمـان
١٧٧ – واغفرْ لأهـلي وكـذا أولادي كذاك أصحـابي مع الاسـتاذ
١٧٨ – وابعثْ إلهي نفحةً ذكيـةْ من عاطـر الصـلاة والتحيـةْ
١٧٩ – على الحبيبِ الهاشميّ الهادي لمُهَيَّعِ النجـاة والرشـاد
١٨٠ – سـيدنا محمـد وآلـه وصحبـه ومَنْ على منوالـه
١٨١ – ما أضحكَ الروضَ بكاءُ المزنِ أو كَشَفَ البَـدرُ خمارَ الدُّجنِ

مرفق (٢)

خط سير الرحلة

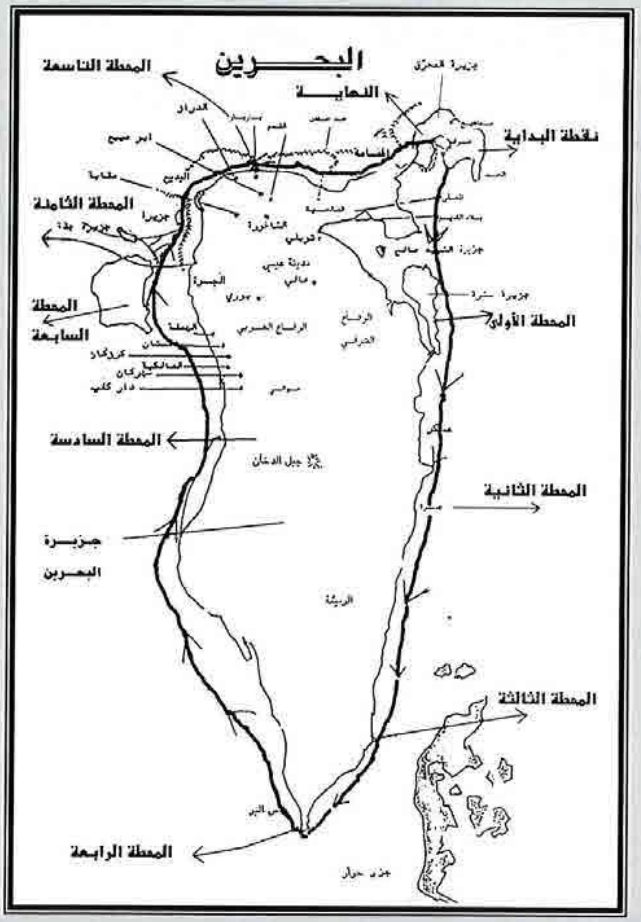

الإحالات

١ – هو عبد الجليل بن السيد ياسين بن السيد إبراهيم، ينتهي نسبه إلى الأسرة الهاشمية . ولد في البصرة عام ١١٩٠هـ/١٧٧٦م . ودرس على علمائها ثم استوطن "الزبارة" في نواحي "قطر" وكانت تعيش عصراً من الرخاء الاقتصادي والازدهار السياسي والاجتماعي جعلها تستقطب الكثير من الشخصيات السياسية والأدبية . (تراجع مقدمة الديوان خاصة ص٢ وبعدها)، ووطّد علاقته بأمرائها من آل خليفة وقرّبوه ووثقوا به . وأخذ نجمه في الظهور . وانتقل معهم إلى "البحرين"، وسكن مدينة "المحرق" وذلك في عام ١٢٢٥هـ/١٨١٠م . وأوكلوا إليه أمر مراسلاتهم، وكان ممثلهم في المؤتمرات . له اتصالات واسعة برجالات عصره من سياسيين وأدباء وشعراء . غادر "البحرين" إلى "الكويت" وهو في السبعين وبقي هناك ما يقارب الأحد عشر عاماً حتى توفي بها عام ١٢٧١هـ/١٨٥٣م . تراجع ترجمته في مقدمة ديوانه ص٥ وبعدها وأعلام الزركلي ج٣ ص٢٧٦، دار العلم للملايين، بيروت، ط٧، ١٩٨٦ .

٢ – تراجع في ديوانه الموسوم بـ "روض الخلّ والخليل ديوان السيد عبد الجليل"، ص١٩٧ وبعدها، مرفق (١) . وقيّم الديوان كاتب مقدمته الشيخ عبد الله بن خالد آل خليفة فقال : "إن ديوان الطباطبائي هو بحق وثيقة تاريخية للفترة التي عاشها صاحبه من القرن الفائت (المقصود به القرن التاسع عشر الميلادي) في أرض الخليج العربي. وهو صورة صادقة للحياة التي كان ناس ذلك العهد يحيونها من مختلف النواحي الاجتماعية والأدبية والسياسية" ص ز . ومن أمثلة الجانب الوثائقي التاريخي قوله مؤرّخاً لعدد السفن التي غزا بها سلطان مسقط (السيد سلطان بن أحمد) الزبارة والبحرين في سبتمبر ١٢١٧هـ/١٨٠٢م : من الطويل :

لكَ اللهُ إنّي من فراقِ الحبـائب ... لفي لاعجٍ بينَ الأضـالعِ لاهـبِ

هـــوايَ زباريٌّ ولستُ بكاتـــمٍ ... هـــوايَ ولا مصغٍ للاحٍ وعـائبِ

نأتْ دارُ من أهوى وعَزّ قرارُهـا ... ومن دونها قد حَال قرعُ الكتائبِ

وسَدّ طريقُ القُربِ منها بخمسـةٍ ... وخمسينَ جلاً من عظامِ المراكبِ

(ص٩، والديوان بتحقيق ومراجعة يس الشريف، البحرين ١٩٦٤) .

٣ – يراجع الشرتوني سعيد الخوري، أقرب الموارد في فصيح العربية والشوارد، مادة "نزه" .

٤ – يراجع السابق مادة "رحلة" .

٥ – يراجع "الرحلة بين الواقع والخيال في أدب أندريه جيد"، نادية محمود عبد الله، ص٩٧، مجلة عالم الفكر، المجلد ١٣، العدد ٤، ١٩٨٣ .

٦ – يراجع ص٣٧ من ديوان السيد عبد الجليل الطباطبائي، نشر المطبعة السلفية، القاهرة ١٣٨٥ .

٧ – يراجع "السيمولوجيا وأدب الرحلات" لطيف زيتوني، مجلة عالم الفكر ص٢٥٨، المجلد ٢٤ العدد ٣، ١٩٩٦ .

٨ – سعيد يقطين "خطاب الرحلة العربي"، مجلة علامات، العدد ٩، سبتمبر ١٩٩٣، ص١٧١ .

٩ – إسماعيل المدني وهاشم السيد، بيئة البحرين البحرية ص٢٣ و ٢٤، نشر المؤلفين، البحرين ٢٠٠٠، سلسلة كتب حول الحياة الفطرية — ٧ .

١٠ – السابق ص٥٩ .

١١ – السابق ص٦٢ جدول ٣ .

١٢ – راجع الخريطة المرفقة في نهاية البحث (مرفق ٢) .

١٣ — عبد علي حبيل، جزيرة سترة بين الماضي والحاضر ص١، نشر المؤلف، البحرين، ط١ ٢٠٠٠ .

١٤ – السابق ص٦٧ و ١٠٠ .

١٥ – السابق ص٧١ .

١٦ – السابق ص٦٥، ومحمد بن خليفة النبهاني، التحفة النبهانية ص٢١ و ٤٩ و ٥٠، دار إحياء العلوم، بيروت، ط١ ١٩٨٦ .

١٧ – يراجع جواد علي : تاريخ العرب قبل السلام ٢٩٦/٢، دار العلم للملايين، بيروت، ط٣، ١٩٨٠ . وأيضاً يراجع عبد الله بن خالد الخليفة وعبد الملك الحمر : البحرين عبر التاريخ، ج١ ص١٦، نشر وزارة الإعلام، البحرين ط٣–١٩٨٢ .

١٨ – النبهاني/ التحفة النبهانية ص٥١، وأعلام الزركلي ١٢٥/١ .

١٩ – لويس معلوف : المنجد في اللغة والأدب والعلوم مادة "قرش"، المطبعة الكاثوليكية، بيروت ١٩٨٦ . ولكون البحرين مجموعة من الجزر تتوفر فيها أصناف عديدة من السمك وقامت الباحثة وجيهة صادق البحارنة بإحصاء ١٣٠ صنفاً من أسماك البحرين في كتابها (**Fish in Bahrain**)، نشر وزارة التجارة والزراعة : ومن أشهر أنواعها التي ذكرتها : الصافي، والهامور، والكنعد، والشعري ... الخ . وأشارت في كتابها الآخر "أسماك البحرين الخطرة"، ص١١ وما بعدها . نشر وزارة التجارة والزراعة إلى أنواع سمك القرش التي تعيش في بحار البحرين وذكرت مخاطرها وأهم خصائصها . وعن أسماك البحرين يراجع أيضاً حبيل "جزيرة سترة.." ص٦٣ .

٢٠ – اليعفور : الظبي الذي لونه كلون العَفَر وهو التراب، أو هو الظبي عامة، أو ولد البقرة الوحشية . لسان العرب مادة "عَفَرَ" .

٢١ – تعرّف المعاجم والكتب المتخصصة في الحياة النباتية هذه الأعشاب وتذكر خصائصها : الطبية واستعمالاتها المختلفة، فالشيح : نبات سهلي من الفصيلة المركبة رائحته طيبة وقوية وهو كثير الأنواع مادة "شاح" لسان العرب والمعجم الوسيط. والحوذان : نبات عشبي من ذوات الفلقتين منه أنواع تزرع لزهرها، وأخرى تنبت في البراري مادة "حوذ" لسان العرب والمعجم الوسيط، وعن خصائصه الطبية يراجع : نباتات البحرين الطبية، جميل عبد الله، فوزية الصالح ص٨، نشر جامعة البحرين ٢٠٠٢ . والطرفاء : جنس من النبات، ومنه أشجار وجنبات من الفصيلة الطرفاوية ومنه الإثل، لسان العرب والمعجم الوسيط مادة "طرف" وعن خصائصه الطبية يراجع نباتات البحرين الطبية ص٥٤ و ١٥٤ . الثمام : عشب من الفصيلة النجيلية، فروعه مزدوجة، متجمعة، لسان العرب والمعجم الوسيط ماد "ثمم" وذكرت خصائصه الطبية في "نباتات البحرين الطبية" ص١٣٤ . والمرخ : شجر لين رقيق سريع الاشتعال، لسان العرب والمعجم الوسيط مادة "مرخ" وخصائصه الطبية في كتاب "نباتات البحرين" ص٦٤ . الأرطاة :

نبات شجيري من الفصيلة البطاطية ينبت في الرمل ذو ورق دقيق ورائحة طيبة، لسان العرب والمعجم الوسيط مادة "أرط" ويراجع عن خصائصه الطبية "نباتات البحرين الطبية" ص١٧٤.
الرمرام : حشيش ينبت في الربيع، وضرب من الشجر، طيب الرائحة، لسان العرب والمعجم الوسيط ماد "رمرم" وعن أنواعه وخصائصه الطبية يراجع "نباتات البحرين الطبية" ص٨٠ وبعدها .

٢٢ – المعجم الوسيط مادة "دهن"، والمنجد في اللغة والأعلام، قسم الأعلام ص٢٨٩ .

٢٣ – تراجع أخبار الأب في كتاب الإصفهاني، الأغاني ١٤٢/٥ وبعدها وأخبار الابن في صفحات عديدة وردت في ج٢٤ ص١٤٩ . طبعة دار الثقافة، بيروت، ١٩٨٣ .

٢٤ – ذكر د. سعيد عبد الله في كتابه "طيور البحرين والخليج العربي" وهو من منشورات مركز البحرين للدراسات والبحوث ط١، ١٩٩٣، وفي ص١٨ ذكر أن منطقة الخليج والجزيرة العربية وبحكم موقعها الجغرافي المتميز فهي نقطة التقاء لمناطق هامة في العالم فإنها تشكل معبراً هاماً للكثير من الطيور في وقت هجرتها الخريفية والربيعية، وموقعاً جيداً تستقر فيه لقضاء الشتاء بعيداً عن الشمال ومناخه القارس . وضمن كتابه ذكر أنواعاً كثيرة من تلك الطيور، وذكر مواطنها الأولى ومواسم هجرتها إلى المنطقة وخصائصها، كما اعتنى بذكر الطيور المقيمة وميزات كل منها .

٢٥ – عبد الله بن خالد آل خليفة وعلي أبا حسين : البحرين عبر التاريخ ١٤٦/٢ .

٢٦ – تراجع مقدمة الكتاب المذكور في المتن، ص٣ وبعدها، وعن أسباب الرحلة وظروفها يراجع ص ١٤ وما بعدها . والكتاب نشر المطبعة الحيدرية – النجف، ١٩٧٦ .

٢٧ – إبراهيم أنيس : موسيقى الشعر ص١٥٢، دار القلم – بيروت، ط٤، ١٩٧٢ .

٢٨ – لمزيد من الأمثلة على هذا اللون تراجع الأبيات ٥٥ و ١١٦ .

٢٩ – يراجع أيضاً الأبيات ٢٠ و ٣١ و ٥٢ و ٨٦ و ١١١ و ١٢٥ و ١٣٨ و ١٧٣ .

٣٠ – لمزيد من الشواهد على هذا الضرب تراجع الأبيات ٤٠ و ٦٨ و ٨٢ و ١٨٢ و ١٢٩ و ١٤٣ و ١٤٧ و ١٥٠ و ١٥٢ وغيرها .

٣١ – مثال آخر لهذا النمط في البيت ١٣٤ .

٣٢ – يراجع لهذا اللون البيت ١٧ .

٣٣ – حسن النعمي : رحلة السرد . سرد الرحلة، مجلة "جذور التراث" العدد الثامن، مارس ٢٠٠٠ ص١٨٩ .

٣٤ – السابق ص١٨٨ .

٣٥ – سعيد يقطين : خطاب الرحلة العربي ومكوناته البنيوية. ذكر سابقاً ص١٦٤ .

٣٦ – السابق ص١٧٠ .

٣٧ – تراجع الأبيات من ٨٥– ٨٩ .